أبحاث مغربية

محاولة للدفاع عن برّ العدوة

عبد الرحمن الفاسي

القيت في سنة ١٩٥٢ محاضرة بمعهد الدروس العليا بالرباط بعنوان : الآداب المغربية على عهد الامبراطورية ، وتسعفني الذاكرة اليوم بأن تلك المحاضرة كانت دفاعاً عن الأدب المغربي في تلك الحقبة التي انتظم فيها عهد المرابطين المعروفين بالملثمين وعهد الموحدين ، وهذا البحث يعد امتداداً لذلك الدفاع ، حيث اني ارجع اليوم القهقرى لأخصص هذا البحث للدفاع عن الدور الاول من ادوار تاريخ ادبنا المغربي الذي ينتظم فيه من الناحية السياسية عصر الفتوح والولاة ، وعصر الشرفاء الأدارسة ، ثم عهد مغراوه وبني ايفرن ، وبذلك اصل بهذا البحث بين دورين ادبيين متعاقبين ، وقد نظمت في هذا الدور الاول العهود السياسية المذكورة كلها استجابة لما تقتضيه طبيعة مثل هذه الأبحاث التي تعز مصادرها بما في ذلك المخطوطات .

واعني انني لا اعتمد العصور السياسية في منهاجي ، وانما أرى ان خصائص ومميزات النصوص والآثار ، الشعرية أو النثرية ، اولى بالاعتبار في تحديد الاطوار الادبية في مثل هذه الدراسات التي تعتبر الى حد الآن مجرد محاولات لكشف الستار عن حلقة مفقودة في تاريخ ادبنا العربي بوجه عام .

والمهم على كل حال ، هو المبادرة الى القول بأن هذه الفترة أو هذا الدور ـ بتعبير

محدد ـ قد كان كالدور الذي يليه ، واعني دور عهد المرابطين بالمغرب ، هدف تهجم فقرف بالعقم ، وجرح أهله بنضوب القرائح وقلة الفهم ، وذلك عقبى لتواطوء القدامى والمحدثين على هذه الاحكام ، وربما كانوا مستندين في ذلك على شهادة صادرة عن عارف لا يتطرق الى معرفته او حياده ما يوجب الطعن في حكمه على هذه الاوطان ، تلك هي شهادة بحر اللغة وامام الكلام وشيخ الادب ببغداد الوافد على شبه جزيرة الاندلس في عهد بني مروان أبي علي القالي صاحب الامالي [1] حين قال : (لما وصلت القيروان وأنا اعتبر من أمرّ به من اهل الامصار فأجدهم درجات في العبـــارة وقلة الفهم بحسب تفاوتهم في مواضعهم منها بالقرب والبعد ، كأن منازلهم من الطريق هي منازلهم من العلم ، محاصة ومقايسة ، فقلت ان نقص اهل الأندلس عن مقادير من رأيت في افهامهم بقدر نقصان هؤلاء عمن قبلهم فسأحتاج الى ترجمان في هذه الأوطان) [2] .

وهكذا سجلها عالم بغداد على عباراتنا وافهامنا ، وقد كان دخوله الاندلس عام ثلاثين وثلاث مائة ، ودخل قرطبة على حد تعبيره في شعبان لثلاث بقين منه [3] وجزيرة الاندلس

---

(١) انظر ترجمته الوافية في ارشاد الأريب ج ٧ ص ٢٨ وما بعـــدها ، وانظر ج ٢ ص ٣٥٢ وما بعدها ، وانظر وفيات الاعيان تحقيق الاستاذ محمد محيي الدين ج ١ ص ٢٠٤ وما بعـــدها تحت الترجمة رقم ٩٢ ، وانظر نفح الطيب تحقيق الاستاذ محمد محيي الدين ج ١ ص ٣٤١ والجزء ٤ ص ٧٠ وما بعدها وانظر ص ١٥٠ وراجع انبـــاه الرواة ج ١ ص ٣٠ ـ ٢٠٥ وما بعدها ، وانظر تاريخ قضاة الاندلس ٦٦ وانظر (بغية الوعاة) ١٩٨ وانظر بغية الملتمس للضبي ، مجريط ص ٢١٧ وانظر طبقات الزبيـــدي ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤ ، وانظر فهرست ابن خير ص ٣٢٨ ـ ٣٥٣ وما بعدها و ص ٤٢٢ وانظر ازهـــار الرياض ج ٢ ص٢٧٣ ، وانظر جذوة المقتبس ص ١٥٥ ـ ١٥٦ ، وانظر شذرات الذهب ج ٣ ص ١٨ ، وانظر التـــكملة لابن الآبار ، وراجع الترجمة المهمـــة لمقدمة الامالي للاستاذ محمد عبـــد الجواد الاصمعي ـ دائرة المعارف الاسلامية ـ الترجمة .

(٢) انظر اصل النص في مقدمة الذخيرة لابن بسام ، وانظر نفح الطيب ج ٤ ص ١٥٠ وقد وردت هذه الـــكلمة في غير ما مصدر من مصادر ترجمته .

(٣) انظر وفيات الاعيان ـــ انباه الرواة ـــ طبقات الزبيدي ـــ ارشاد الاريب .

يومئذ في ازهى عصورها الادبية والعلميـــة على عهد ناصر بني مروان [1] ، ففي امهات مدنها وكورها تنبث عشرات المكاتب لعامة الناس ، وفي جامعاتهـا تعتمل وتختمر ثقافـة مؤذنة بطلائع نهضـة العلوم التي بلغت فيما بعـد أوج الكمال ، فهذه قرطبة التي حج اليها القالي تعج بالعديد من رجال العـلم الرواد الذين عني بذكرهم صاعد في الطبقـات ، وتحفل بشعراء وعلماء هذه الحقبة أمثـال ، ابن هانيء ، والمصحفي ، والزبيدي ، وابن القوطية ، وابن فرج الجياني ، وخلق آخرين ممن عني بذكر اسمائهم ابن حزم في الرسالة ، وابن سعيد في الذيل ، حسبما ينقل عنه .

وماذا يمكن ان يقال عن أهل البلاغة والبيان في هذه الجزيرة ، واشـراف عرب المشرق افتتحوها (وسـادات احفاد اهل الشام والعراق نزلوها ، فبقي النسل فيها بكل اقليم على عرق كريم) : (نفح الطيب) .

لقد وفد القالي من عراق المشرق الى عراق المغرب ، حيث لطفت نسمات الانهار من اجوائه ، وعطرت الرياض العربية ساحاتـه ، فهزج اهله في باديتهم وحاضرتهم بكل رائق منظوم ، وترنموا بكل بديع منثور .

وماذا اقول عن بغداد المشرق التي ورد منها هذا الامام ، وهي يومئذ عاصمة الدنيا ،

---

(١) ورد في ارشاد الاريب بطالعة ترجمة القالي ان وفادته على الاندلس كانت على عهد الحكم المستنصر ، اي على عهد ابن الناصر وخلفه من بعده ، ولكن ياقوت عاد فنقل عن الحميدي في نفس الترجمة ان الوفادة كانت على عهد الناصر ، وهذا ما اوحى الى الاستاذ الفاضل ابن عاشور في بحثه القيم بالجزء التاسع عشر من مجلة مجمع اللغة العربية حول (السند التونسي في علم متن اللغة) الى ان يعلن ان ياقوت قد وهم ، والواقع ان نقل ياقوت عن الحميدي يرفع عنه هذا الوهم ، ويعد ذكر الحكم من باب سبق القلم ، لاسيما وسياق كلام ياقوت لايفيد عرض خلاف في الموضوع ، بينما تفيد عبارة المقرى في النفح ان هناك خلافاً ، وكأني بالمقرى هو الذي وقع في وهم قد يكون ناشئاً عن نظرة عابرة على ما في ترجمة القالي في ارشاد الاريب ، والمقطوع به ان الوفادة تمت على عهد ايام الناصر ، للاجماع على ان قصة علي القالي وحصره عند ما تقـدم لالقاء الخطبة وقيام منذر بن سعيد مقامه قد كانت على عهد الناصر لاعلى عهد الحكم ، راجع تحقيقات الاستاذ البير مطلق في كتابه الحركة اللغوية في الاندلس لدى تعرضه لأبي علي القالي .

ومهد شيوخ العلم وعباقرة الآداب ، وقد استبحر فيهـــا العمران ، وبلغت فيها المدنية العربية غايتها ، واخلد فيها ذوو الدعة واليسار لأسباب الكمال ، بعد ان استكملوا ـ كما عبر ابن خلدون ـ الضروري والخارجي من شؤون الحياة .

لقد ورد أبو علي القالي من عاصمة الشرق وهى في ريعان عزها ، وابان امجادها الى عاصمة الغرب (قرطبة) وهي يومئذ في عنفوان ازدهارها وشباب حضارتها ، وبين تلك وهذه متوسطة بين القيروان وشط الزقاق [1] قد انتظمت فيها بلاد وامصار ، لم تتح لها ظروفهـــا السياسية وملابساتها الاقليمية من مقومات الاستعراب ما يمكنها من تجويد العبارات وشحذ الافهام ، فما استوى لها فى لغة الضاد أدب ، وما حج اليهـا طلاب ، وما كان لقادم عليها كالقالي ، انشاد ولا املاء ، فمن الطبيعي ان تكون هذه الدنيا المتوسطة على سعتها وتعدد امصارها ، ونضارة ارجائها ، صحراء جرداء في عين ونظر عالم لغة ، لا يعنيه من حال المسالك والممالك الا عبـــارات السكان ، فهي في نظره مقياس الحياة ، ومعيـار افهام الاحياء .

واغلب الظن ان هذه الكلمة من الامام القـالي التي ذيلت بثناء خاص على أهل الجزيرة الاندلسية ـ وقد كان بينهم وبين أهل بر العدوة [2] صراع ومفاخرات فكرية لها ذكر مشهور في غير ما كتاب ـ قد أمدت بالغذاء عواطف بعض الاندلسيين الاعلام ، اولئك الذين جمحت بهم الحمية لبلادهم ، والعصبية لرجالهم ، فلم يتحرجوا من تنقيص اي عبقري كان ، وفي اي وطن وفي أي زمان ، اذا ما دعت الى ذلك ضرورة ابداء محاسن الجزيرة ، وتعداد من طلع في أفق ذلك الفردوس .

وهكذا نرى ابن بسام ـ وهو فيما يظهر ـ أول من سجل هذه القالة فى مقدمه كتاب

---

(١) بوغاز جبل طارق أو جبل الفتح كما يسميه بعض المؤرخين القدامى .

(٢) يطلق الاندلسيون بر العدوة على المغرب الاقصى اي على (مراكش) في الاصطلاح الحديث لاخواننا المشارقة .

الذخيرة ـ يوردها في معرض الاشادة بفضل ومحاسن اهل الجزيرة ، فما ان فرغ من تسجيلها حتى أردفها بذلك التذييل الذي يستروح منه الباحث الدافع الباطني الذي حداه لروايتها ، فاذا هو يقول اثرها بكل بساطة : (وبلغني ان أبا علي كان يصل كلامه هذا بالتعجب من أهل الافق الاندلسي في ذكائهم ويتغطى عنهم عند المباحثة والمفاتشة ، ويقول لهم ان علمي علم رواية وليس بعلم دراية) .

والواقع ان ابن بسام لم يشذ [1] عن خليقة قومه في هذا المجال فان الصفحات التي خلفها بعض مؤرخي الاندلس ، كابن غالب ، صاحب فرحة الأنفس ، وكالحجاري صاحب (المسهب) [2] لتدل بوضوح وجلاء على ان اعجابهم ببلادهم وتفننهم باللهج بها ، واكبارهم

---

(١) ومن ذلك ما يقوله ابن بسام عن ابي عبيد البكري (ولولا تأخر ولادته لانسى ذكر كنيه المتقدم) ويعني بكنيه ابا عبيد القاسم صاحب كتاب (الغريب المصنف) ولابي عبيد البكري كتاب في شرح ابيات (الغريب المصنف هذا) وكما هو معلوم فان هناك كتاباً باسم الغريب المصنف لابي عمرو اسحق بن مرداس الشيباني النحوي الكوفي . والراجح ان كتاب الغريب المصنف لابي عبيد القاسم كني البكري هو الكتاب الذي استعاره منذر بن سعيد البلوطي ببيتي شعر من ابي علي البغدادي (نفح الطيب ج٢ ص ٢٢٧) وليس كتاب (الغريب المصنف) لابي عمرو الشيباني لان كتاب كني البكري هو الذي كان متداولا بالاندلس بين الادباء فما وقع في المقدمة التي كتبها الاستاذ محمد جواد الاصمعي على كتاب الامالي يعتبر مرجوحاً فيما يظهر .

(٢) ومحمد ابن غالب هو محمد بن ايوب من اهل غرناطة من رجال القرن السادس ، حسبما حققه الاستاذ لطفي عبدالبديع (انظر بحثه القيم في مجلة المخطوطات العربية في العددين ١ـ٢ سنة ١٩٥٥) والاسم الكامل لكتاب ابن غالب هو (فرحة الأنفس في اخبار أهل الاندلس) ولا توجد من هذا الكتاب نسخة كاملة وانما هناك قطعة صغيرة منه وقع عليها الاستاذ لطفي المذكور باسم (تعليق منتقى من نزهة الأنفس) حسبما يعلم من بحثه بالمجلة المشار اليها ، وكتاب (فرحة الأنفس) من مصادر (المغرب) لابن سعيد ومن مصادر نفح الطيب الذي تنتثر بين ثناياه فصول مهمة منه (انظر محل الشاهد في ج ٤ ص ١٤٦ وراجع البحث المستفيض للدكتور حسين مؤنس حول كتاب فرحة الأنفس في كتابه تاريخ الجغرافية والجغرافيين) .

واما الحجاري فهو عبد الله بن ابراهيم الحجاري ، كانت له صحبة اكيدة مع جد علي بن سعيد صاحب (المغرب) حسبما ينقله المقري عن ابن سعيد ، وقد كان اصل كتابه (المسهب في غرائب المغرب) في ستة =

لها ، وتصغيرهم لأي صقع سواها ، قد خرج بهم عن مهيع الاعتدال الى حد يلفت الأنظار .

وانها لشهوة قاهرة ـ وايم الله ـ ان ينزع الامام ابن حزم الى اظهار فضل قرطبة بالتنقيص من القيروان حين قال مخاطباً أحد رجالها الاعلام (فهذه القيروان بلد المخاطب لنا ، ما اذكر اني رأيت في اخبارها تأليفاً غير (المغرب عن اخبار المغرب) وحاشى تواليف محمد بن يوسف الوراق [1] ، فانه ألف للمستنصر رحمه الله في مسالك افريقيا وممالكها ديواناً ضخماً ، وفي أخبار ملوكها وحروبهم والقائمين عليها كتباً جمة ، وكذلك ألف أيضاً في أخبار (تيهرت) ووهران ، وتنس ، وسجلماسة ، ونكور ، والبصرة ـ بلد كان معروفاً بشمال المغرب بهذا الاسم ـ وغيرها تواليف حساناً) [2] ، ثم يقول ابن حزم : (ومحمد هذا اندلسي الاصل والفرع) آباؤه من وادي الحجارة ، ومدفنه بقرطبة ، وهجرته اليها ، وان كانت نشأته بالقيروان .

وانها لحمية طاغية ان يقول الامام ابن حزم في افتخار (ونحن اذا ذكرنا أبا الأجرب

=اجزاء ، ويعتبر الأصل الذي اضيفت اليه زيادات وذيول بني سعيد فانبثق من مجموع ذلك كتابهم (المغرب) ومن ثم فان النصوص المصرح فيها بالنقل عنه في كتاب المغرب المطبوع بتحقيق الاستاذ البحاثة شوقي ضيف ، او التي نقلها المقري في (النفح) هي كل ما في يد الباحثين من كتاب المسهب ، ويعتبر كتاب (الاحاطة) لابن الخطيب السلماني ام مصدر يمدنا بالتعريف به وبكتابه المسهب (انظر النسخة المصورة من الاحاطة بمكتبة الرباط) .

(١) يعرف الوراق (٢٩٢ ـ ٣٦٣) بالتاريخي لكثرة تآليفه التاريخية المشار الى بعضها في نص ابن حزم ، وقد نسب اليه البيدق كتاباً باسم (أنساب البربر) ولا تعرف من كتب الوراق غير النصوص التي نقلها البكري في (المسالك والممالك) ومن حسن الحظ ان مخطوطة القرويين من كتاب المسالك هي القسم الخاص الذي يتضمن المغرب الى جانب ايران ومصر ، ومخطوط القرويين يمثل احدى القطع الثلاث الموجودة من كتاب المسالك والممالك . وقد طبع قسم منه في باريس .

(٢) انظر في المجموعة الاندلسية : بغية الملتمس للضبي تحت رقم ٣٠٤ وجذوة المقتبس للحميدي تحت رقم ٩٠ والتكملة لابن الأبار تحت رقم ٣٤٤ وراجع فيما يتعلق بالتعريف بالبلاد المغربية المذكورة في نص ابن حزم ج ١ من (البيان المغرب) لابن عذارى المراكشي ، وهو الجزء الخاص بالمغرب .

جعونة في الشعر لم نباه به إلا جريراً .. والفرزدق ، ولو أنصف لاستشهد بشعره فهو جار على مذهب الأوائل) .

وعلى ذكر جرير هنا أقول ان الدامغة في كلام هذا الامام هي التي شج بها قراءه حين قال : (ولو لم يكن لنا من فحول الشعراء الا أحمد بن محمد بن دراج القسطلي لما تأخر عن شأو بشار بن برد ، وحبيب ، والمتنبئ) .

ولا غرو إذا وثب الى ذهن الباحث الآن ـ بحكم تداعي الافكار ـ تلك الكلمات المتلطفة التي فاه بها أبو الطيب المتنبئ حين قال في حق ابن عبد ربه الاندلسي ـ وهمك به من قائل ـ : (والله يا ابن عبد ربه لتأتيك العراق حبواً) ، وهي كلمة تنم عن روح مشرقية سمحة ، وعن مرونة فكرية من شاعر عظيم ، سار شعره ـ كما يقول الثعالبي ـ مسير الشمس ، وانتظم اطراف الشرق والغرب ، هذا وابن عبد ربه او المليح ـ كما لقبه المتنبي ـ لم يكن حقاً بالشاعر الذي تحبو اليه العراق او الشام ، فمجده الشعري قائم عند النقاد في تجديده للموشحات ، وعلى قوة طاقته الماثلة في مدائحه الطوال ، مع انه يبدو في هذه ناضب العاطفة ، عاطلاً من الذوق الصقيل ، ودون مواطنه ابن هانيء تفنناً ، ونراه في غزله ـ وهو قليل من كثيرشعره ـ ، اشعر منه في تلك المطولات ، وكأنني بالمتنبي وهو لم يستملحه في غير مقطعاته الغزلات .

والواقع ان الامام ابن حزم نفسه ـ وهو دون ابي الوليد الشقندي ، ودون اعلام اسرة « بني سعيد » اعتزازاً وحمية ـ قد تجاوز القصد والاعتدال في رسالته[1] فنراه قلما يذكر اثراً اندلسياً دون ان يزكيه بمثل هذه العبارات : (اربى فيه مؤلفه على كل من تقدمه ، او لم يؤلف مثله في الاسلام ، او ما صنف احسن منه ولا اجمع ، او انه جمع زبدة الاولين والآخرين ،

(١) انظر رساله ابن حزم وذيل ابن سعيد عليها في نفح الطيب ج ٤ ص ١٥٢ وما بعدها (تحقيق ونشر محمد محيي الدين عبدالحميد) وقد ألف الوزير الحافظ رسالته هذه جواباً على رسالة ابن الربيب التميمي القيرواني التي ذكر فيها تقصير اهل الاندلس في تخليد اخبار علمائهم .

حتى اذا اقتصد الشيخ واعتدل قال : انه من اجل الكتب في هذا المعنى ، او هو الكتاب المعتمد عليه .

وتسلمنا هذه العصبية الفكرية الى ابي الوليد الشقندي [1] ، كرة اخرى ، ورسالته كما ألمعت الى ذلك في طالعة هـذا الحديث قد نالت نيلاً من الذوق المغربي ، ومن الاستعدادات المغربية في شخصيات الملثمين (المرابطين) بضراوة وجفاوة ظاهرتين فقد كان معنيا بتعداد فضائل قومه وبالثأر للملك الضليل المعتمد بن عباد ، ذلك الملك الشاعر الذي استطاع ان يغزو قلوب الادباء والمؤرخين حياً وميتاً ، شرقاً وغرباً ، قديماً وحديثاً .

وقد كفانا الشقندي نفسه مهمة اظهار عصبيته فأقر في مقدمة رسالته من غير مداورة او التواء بانه خرج عن سجيته في الاغضاء الى الحمية والاباء ، ولهذا لن يعنينا الآن من رسالته الا بعض فصولها ، حيث نلاحظ ان الاديب الاندلسي لم يتحرج وهو في معرض المساجلة من تبني احد قضاة الموحدين ، واعني الشاعر الاديب ابا حفص السلمي المراكشي [2] ، فهو يشيد بهذا القاضي الظريف على انه قرطبي صميم يعز نظيره في بر العدوة ولن يكون هذا فيما احسب بالغريب وقد سمعنا منذ لحظات امام الاندلس ابن حزم يحاول ان يجعل من الوراق التونسي اندلسياً بالرغم عنه ، ولأم التونسيين الهبل .

ولقد كان من اثر هذا ان كتاب التراجم الاندلسيين درجوا في عزو الرجال الى الاوطان على غير منهاج معلوم ومقياس مرسوم ، فتارة يعتدون بالمولد والنشأة ، وطوراً بالوفاة ،

(١) الشقندي نسبة الى شقندة من ارباض قرطبة على الضفة اليسرى للوادي الكبير ، ويفهم من كلام بعض المؤرخين ان الارباض بمعنى الضواحي ، ويظهر انها صارت تطلق على الاحياء بعد توسع قرطبة ، والشقندي هو ابو الوليد اسماعيل بن محمد اديب شاعر وفقيه جمع فنوناً من العلوم القديمة والحديثة على نمط اعلام الاندلس ، ولي قضاء (بياسة ولورقة) وقد عرف به المقرى في (النفح) نقلا عن ابن سعيد (انظر النفح ج ٤ ص ٢٠٨ وما بعدها) ونقل نتفاً من شعره وذكر انه توفى سنة ٦٢٩ وأورد صاحب النفح رسالة الشقندي بتمامها وقصة تأليفها كمعارضة لرسالة ابن المعلم الطنجي المغربي (انظر النفح ج ٤ ص ١٧٦ وما بعدها) وقد اقتطف المرحوم زكي مبارك فصولا من هذه الرسالة في كتابه (الموازنة بين الشعراء) الطبعة الثانية ـ طبعة الحلبي)

(٢) انظر ترجمته في حرف العين من كتاب (الاعلام بمن حل بمراكش واغمات من الاعلام) لقاضي مراكش المغفور له عباس بن ابراهيم .

وآناً بالهجرة ، وانما المدار في ذلك على ما يرونه انسب لاندلسيتهم واشكل باقليمهم ، وقد حاول ابن حزم نفسه ان يضع ضابطـاً لذلك باعتماد جانب الهجرة ، واستند في ذلك على المؤرخين الائمة السالفين ، فقال انهم اعتمدوها ، واشار الى بعض الامثلة كـذكرهم الامام علياً في الكوفيين مع انه ظل ثمانية وخمسين عاماً واشهراً بمكة والمدينة ، ثم انتقل الامام الى هذا الضابط حيث قال : فمن هاجر الينا من سائر البلاد فنحن احق به ، وهو منا بحكم جميع اولي الامر منا الذين اجماعهم فرض اتباعه ، وخلافه محرم اقترافه ، ومن هاجر الى غيرنا فلاحظ لنا فيه ، والمكان الذي اختاره اسعد به) .

ولكن الملاحظ ان هذا الضابط قد انخرم واختل في غير ما معجم من معاجم الرجال ، فنراه يطبق تطبيقاً على مثل الشاعر الشريف السبتي شارح مقصورة حازم ، فهو عندهم الشريف الغرناطي ومذكور في عداد الاصليين لا في عداد الطارئين او الغرباء كما يسمونهم ، وقد نظروا في ذلك الى انه هاجر الى غرناطة وبها ادركته الوفاة بينما نرى هذا الجم الغفير من الاعلام الذين حطوا بساحاتنا واقبروا في تراب عدوتنـا ، بمراكش ، وفاس ، واغمات ، قد ادرجوا في التراجم الاندلسية الاصلية لابين الغرباء ، وما هذا الا مظهر من مظاهر عصبيتهم الفكرية ولا مراء .

أما ثالث الثلاثة فهو المؤرخ الاديب أبو الحسن بن سعيد [1] واعني به في الواقع احد افراد اسرة بني سعيد وكانوا ستة ، ألفوا بالموارثة [1] كتاب (المغرب في حلى أهل المغرب) وكان أبو الحسن علي بن سعيد آخر من تم الكتاب على يده ، وقد اشـتهر أيضاً بالذيل (المشار اليه آنفاً) الذي وضعه على رسالة ابن حزم ، وجرى فيه على نفس المهيع والنزعة ، وبذلك يعد من شواهد هذا المقام .

---

(١) راجع قصة تأليف الكتاب في نفح الطيب ج ٣ ص ٩٥ وراجع البحث القيم عن كتاب المغرب الوارد في كتاب الدكتور حسين مؤنس عن الجغرافية والجغرافيين ، وراجع ترجمة أبي الحسن ابن سعيد في النفح ج ٣ ابتداء من ص ٣٧ .

وكتاب المغرب وان كان يسجل بالنسبة لبر العدوة تنويهاً بمدينة مراكش وسبتة وفاس وسلا إلا انه يعرض علينا نموذجاً اساسياً من مظاهر العصبية الاندلسية وذلك من الناحية الجغرافية باغراقه في اطراء بلاد الجزيرة الاندلسية ، كما انه من جهة اخرى يعرض علينا مظهراً للعصبية الفكرية الماثلة في تلك المعارضات الادبية التي أمعن في العناية بها ادباء الاندلس امعاناً ، شعراً ونثراً ، وهنا ندع الاديب والبحاثة المصري الدكتور شوقي ضيف محقق الاجزاء الموجودة من كتاب (المغرب) يقدم لنا ابن سعيد في عنجهيته وحميته حين يقول عنه : (وقد ذهب علي بن سعيد آخر المصنفين مذهب المعارضة والمناصبة للمشارقة .

فلم يترك لبلدة من بلاده طريفة بديعة من بدع الشعر ، ولا تحفة نفيسة من تحف الموشحات والازجال الا جاء بها معارضاً متحدياً) .

هكذا يقول في تحقيقه الاستاذ المصري .

والواقع ان أهل الاندلس قد اشتطوا في هذا الميدان حتى ان مؤرخ الآداب العربية ليجد من الضرورة الملحة ان يخصص باباً لهذه المعارضات الاندلسية ، فهذا ابن بسام يؤلف كتاب (الذخيرة) معارضاً به كتاب (اليتيمة) ، وابن فرج الجياني يؤلف كتاب (الحدائق) مضاهياً به كتاب (الزهرة) [1] .

---

(١) كتاب الزهرة لمحمد بن داود الاصفهاني وقد ترجم اسم الكتاب المستشرق الفرنسي (ماسنيون) في احد هوامش كتابه عن الحلاج بما يفيد ان المراد (الزهرة) بتشديد وضم الزاي وفتح الهاء بمعنى الكوكب المعروف عند اليونان بآلهة الحب ، والذي يتعين اعتماده هو ان يكون اسم الكتاب الزهرة بتشديد الزاي وفتحها وتسكين الهاء ، وذلك :

١) لأن نجل الامام داود الظاهري مؤلف الكتاب كان يعرف بسيد العاشقين (انظر طبقات الشافعية وغيرها) ولم تحفظ عنه زلة ، ومن البعيد ان يلمح باسم الكتاب الى الزهرة بمعنى آلهة الحب اليونانية ، والميثلوجيا العربية تسجل عنها الفسق والفجور .

٢) ان الكتاب كما تصرح بذلك مقدمته ألف برسم محبوب المؤلف وهدية له ، ولا تهدى الا الزهور .

والرازي المؤرخ (الولد لا الوالد صاحب كتاب الرايات) يؤلف كتاباً في صفة قرطبة وخططها ومنازل الاعيان بها على نحو مما بدأ به ابن طاهر في اخبار بغداد وذكر منازل صحابة أبي جعفر المنصور بها ، وأبو عبد الله ابن أبي الخصال يصنف كتاب (سراج الآداب) ناظراً الى القالي في النوادر والى الحصري في (زهر الآداب) وأبو اسماعيل بن القاسم يؤلف (النوادر) مبارياً أبا العباس المبرد في كتاب (الكامل) وعلى هذا النحو يلاحظ الباحث ان تلك البدائع السيارة لأقطاب الشعر الشرقيين ، كأبي تمام ، والبحتري ، والشريف الرضي ، وأبي نواس [1] لايخطيء لها في الشعر الاندلسي معارضات متحديات ، وذلك كله يجلي عن نفسية ركب فيها الحرص على اظهار المقومات واشهار الفضائل ، واعلان تبريز أهل صقعهم على سائر الاصقاع ، ومن ثم نرى العالم الطاري عليهم مستهدفاً لترادف المنافرات أو كريه الاعراض ، وحكاياتهم تجاه أبي العلاء صاعد [2] اللغوي الوارد عليهم في

= ٣) ان هذا المحبوب وهو محمد بن جامع كان صيدلانياً يبيع الطيب ببغداد ، ومن حسن الذوق ان تهدى الزهور لمن يبيع الطيب .

٤) ان ابن فرج الجياني الذي عارض كتاب الزهرة قد جاء بكتاب اسمه الحدائق ، مما يدل على ان الكتاب كان معروفاً بالزهرة .

٥) ان اكثر المؤلفين القدامى قد نزعوا الى هذه الفصيلة من الاسماء في تسمية مؤلفاتهم في الحب : كروضة المحبين وغيرها ، وقد يكون هذا ما التفت اليه الدكتور نيكل من جامعة (شيكاغو) الذي نعلم انه ترجم كلمة الزهرة بما يعني الزهرة الفواحة لا كوكب الزهرة . غير ان النسخة التي بين ايدينا انما هي نسخة مصورة عن طبعته فيما يظهر ، وقد اغفل فيها نشر المقدمة ، فلا نعلم ما هنالك من مستندات جعلتنا معه على وفاق .

(١) من المعروف ما كان لشعراء الاندلس من ولع عجيب بمعارضة من نبغ من الشعراء في مصر والشام والعراق ، وقصة معارضة ابن دراج القسطلي لرائية ابي نواس مشهورة ، وقد كان المنصور بن أبي عامر نفسه هو الذي أوحى بالمعارضة (انظر وفيات الاعيان) وانظر في (الموازنة بين الشعراء) للدكتور زكي مبارك ، الموازنة التي عقدها بين الرائيتين ورجح فيها رائية ابن دراج) .

(٢) ترجمته في الذخيرة لابن بسام وفي (المعجب) للمراكشي وفي (نفح الطيب) جـ٤ ص ٧٥ وفي (بغية الوعاة) ص ٢٦٧ وفي (ابن خلكان) جـ ٢ ص ١٨١ .

عهد العامريين ماثلة بين يدينا للعيان ، وهي تشهد بتجاوزهم حد احراجه واعناته الى القدح في علمه وفي عقله ودينه ، مع العلم بانه كان اعلمهم على نفسه بما كان يتنفق[1] به من الكذب ، على حد تعبير ابن بسام ـ ثم كان منهم ان نبذوا كتابه (الفحوص) ودحضوه ورفضوه والقوا به في النهر ، وفي ذلك قال قائلهم وهو متداول مشهور :

قد غاص في البحر كتاب الفصوص وهكذا كل ثقيل يغوص

فأجابه صاعد :

عاد الى معدنه انما توجد في قعر البحار الفصوص

ومن أعجب ما جرى لصاعد ـ كما يروي صاحب نفح الطيب ـ انه كان بين يدي المنصور فأحضرت اليه وردة في غير وقتها لم يستتم فتح ورقها ، فقال فيها صاعد مرتجلاً :

أتتك أبا عامر وردة يذكرك المسك انفاسها
كعذراء ابصرها مبصر فغطت بأكمامها راسها

وكان ابن العريف حاضراً فحسده ، وجرى الى مناقضته ، وقال لابن أبي عامر : هذان البيتان لغيره ، وقد انشدنيهما بعض البغداديين بمصر لنفسه ، وهما عندي على ظهر كتاب بخطه ، فقال له المنصور أرنيه ، فخرج ابن العريف وركب ، وحرك دابته حتى اتى مجلس ابن برد ـ وكان احسن اهل زمانه بديهة ـ فوصف له ما جرى ، فقال هذه الابيات ودس فيها بيتي صاعد :

عشوت الى قصر عباسة وقد جدل النوم حراسها
فألفيتها وهي في خدرها وقد صرع السكر آناسها
فقالت اسار على هجعة فقلت بلى ، فرمت كاسها
ومدت يديها الى وردة يحاكي لك الطيب انفاسها
كعذراء ابصرها مبصر فغطت باكمامها راسها

(١) انظر نفح الطيب ج ٤ ص ٧٨ .

وقالت خف الله لا تفضحن (م) في ابنـــة عمـــك عبـــاسها

فوليت عنهـا على غفـــلة وما خنت ناسي ولا ناســـها

فطار ابن العريف بها وعلقها على ظهر كتاب ، بخط مصري ومداد اشقر ، ودخل بها على المنصور فلما رآها اشتد غيظه على صاعد ، وقال للحاضرين : غداً امتحنه ، فان فضحه الامتحان اخرجته من البلاد ولم يبق في موضع لي عليه سلطان .

ثم يتابع صاحب نفح الطيب قصة امتحانه الذي اعزه واعلاه ، الى ان الحقه المنصور بالندماء .

وهكـذا ، نرى انه لا يكاد يسلم من مثل تنقيصاتهم الجارحـة إلا الراسخون الذين يفرضون شخصيتهم العلمية بعد اختبار وامتحان ، وهذا ابو علي القالي نفسه بالرغم من انه كان له ولاء [1] في بني امية وورد الاندلس باستدعاء من الحـكم المستنصر ـ الذي كان يومئذ ولي عهد والده الناصر عبدالرحمن [2] ـ قد كادت ان تذهب بسمعته العلميـة بادرة تعنت بدهة بها اديب من ريف قرطبة وذلك في نفس اللحظة التي وطئت فيها قدماه تراب الجزيرة، ويروى المقرى قصة ذلك فيقول : (ومنهم ابو علي القالي صاحب الاماليوالنوادر، وفد علىالاندلس ايام الناصر امير المؤمنينعبدالرحمن، فأمر ابنه الحـكم ـ وكان يتصرفمن امر ابيه كالوزير ـ عاملهم ابن رماحسانيجيء مع ابي عليالى قرطبة ، ويتلقاه في وفد من وجوه رعيته ، ينتخبهم من بياض اهل الـكورة تـكرمة لابي علي ، ففعل وسار معه نحو قرطبة في موكب نبيل ، فـكانوا يتذاكرون الادب في طريقهم ، ويتنـاشدون الاشعار الى ان تجـــاوزوا يوماً وهم سائرون ادب عبد الملك بن مروان ومسالته جلساءه عن افضل المناديل وانشاده بيت عبدة بن الطيب :

ثمت قمنـــا الى جرد مسومة اعرافهن لايدينا منـــاديل

(١) نفح الطيب ج ٤ ص ٧٥

(٢) لعل هـــذا الاستدعاء على يد الحـكم الذي عرف فيما بعد بالمستنصر هو اصل ما اثبته ياقوت في مقدمة ترجمته للقالي من انه قدم الاندلس على عهد الحـكم .

وكان الذاكر للحكاية الشيخ ابو علي ، فانشد الكلمة في البيت (اعرافها لايدينا مناديل) فانكرها ابن رفاعة الالبيري ، وكان من اهل الادب والمعرفة وفي خلقه حرج وزعارة ، فاستعاد ابا علي البيت مستثبتاً مرتين في كلتيهما انشده (اعرافها) فلوى ابن رفاعة عنانه منصرفاً وقال : مع هذا يوفد على امير المؤمنين ، وتتجشم الرحلة لتعظيمه وهو لا يقيم وزن بيت مشهور بين الناس لا يغلط الصبيان فيه ، والله لاتبعته خطوة ، وانصرف عن الجماعة ، وندبه اميره ابن رماحس الا يفعل ، فلم يجد فيه حيلة ، وكتب الى الحكم يعرفه ويصف ما جرى لابن رفاعة ويشكوه ، فأجابه على ظهر كتابه : (الحمد لله الذي جعل في بادية من بوادينا من يخطىء وافد اهل العراق) .

ولعل الانتباه قد علق طبعاً بجواب الحكم الذي صادف الحادث في نفسه هوى فلم ينشب ان حمد الله الذي انشأ في باديته من يخطيء وافد العراق ، وهذا محل الشاهد طبعاً في هذا المقام .

وينتهي بي جميع ما قصصته الى تسجيل ملحوظة تعتبر تكملة اساسية في هذا المقام وهي ان هناك مؤرخاً مغربياً يعتبر ـ حسبما اعرف ـ المؤرخ الوحيد الذي اثاره هذا التعصب الاندلسي وحاول ان يكشف عما كان له من اثر في مجانفة المنهاج السوى في عزو الرجال الى الاوطان [1] ، واعني به المؤرخ المغربي ابا عبدالله محمد بن عبدالملك المراكشي المتوفى سنة ثلاث وسبعمائة ، في كتابه (الذيل والتكملة على كتاب الموصول والصلة) [2] وقد قصد بكتابه هذا كما قال [3] (الى تذييل صلة الراوية ابي القاسم بن بشكوال تاريخ

(١) اما صاحب كتاب (البربر) (مطبوع الرباط) فقد كان له اتجاه غير هذا الاتجاه العلمي القائم على هدف البحث عن الحقيقة والاستقصاء الذي انفرد به ابن عبد الملك حمية المغاربة من عرب وبربر .

(٢) نشر العلامة الكبير البحاثة النقاد الاستاذ محمد العابد الفاسي الفهري اوفى ترجمة له وتعريف بالنسخ الموجودة من اجزاء كتابه في مجلة دعوة الحق (الاعداد ٤ ـ ٥ ـ ٦ سنة ١٩٥٩) وهي ام ترجمة الى حد اليوم .

(٣) انظر النص في جملة ما نقله البحاثة الدكتور احسان عباس في مقدمته بالقسم الذي حققه ونشره اخيراً ببيروت تحت اسم بقية السفر الرابع من كتاب الذيل والتكملة .

الحافظ بن الوليد بن الفرضى رحمه الله في علماء الاندلس والطارئين عليها من غيرهم بذكر من اتى بعده منهم وتكميلها بمن كان حقه ان يذكر فاغفله) .

وقد نمت عن هذا المؤلف المراكشي طبيعة قصده ، عندما تعرض لمنهاجه في التأليف فاعلن انه جنح اليه لما لا حظ من عيوب فيما درج عليه كتاب التراجم قبله ، كابن الفرضي وابن بشكوال وابن الابار ، وابن الزبير ، وابي العباس ابن فرتون ، وتعرض بصفة خاصة الى ابن الابار صاحب التكملة . فأخذ عليه من جملة المآخذ انه : [1] (عد في الاندلسيين جماعة من الناقلة اليها افراطاً في تعصبه للاندلس ، ومن ذلك قوله في ترجمة ابي عبدالله ابن عيسى ابي المناصف بعد ان ذكره في الاندلسيين : مولده بتونس وقيل بالمهدية وهو أصح وذكره في الغرباء لا يصح ، ضنانة بعمله على العدوة[2] وهذا شيء لا يليق باهل الانصاف ، وهو يشهد على صاحبه بالحسد المذموم ، واحتقار طائفة كبيرة من جلة اهل العدوة) .

وبهذا النص الواضح يعرض علينا هذا المؤرخ المراكشي ما في نفسه فنعلم ان كتابه انما هو محاولة لرد الاشياء الى نصابها : وعزو الرجال الى اوطانها ، وانصاف العدوة ممن اجحفوا بها ، ومع الاسف الشديد فان كتابه الذي كان معروفاً بالشرق في تسعة مجلدات على عهد السيوطي [3] لا توجد منه الآن غير نسختين من الجزء الاول ونسخة من قطعة من الرابع وثلاث نسخ من الجزء الخامس ونسختين من الجزء السادس ونسخة واحدة من الجزء التاسع وهي موزعة بين المغرب واوربا ، حسبما تدل على ذلك افادات العلامة محمد العابد الفاسي في ترجمته لصاحب الذيل والتكملة ، والدكتور احسان عباس ، وبهذا النزر اليسير الواصل الينا غير موصول لا يتاح لنا ان نستجلي مدى ما انتهى اليه هذا المؤرخ من نتائج قصده في انصاف بني جلدته .

---

(١) أنقل هذا النص بواسطة المحقق الدكتور احسان عباس في مقدمته المشار اليه في الهامش سابقاً.

(٢) يعني عدوة المغرب كما هو اصطلاح الاندلسيين .

(٣) انظر مقدمة (بغية الوعاة)

كما اننا لا نعثر على احد من المؤرخين المغاربة بعد ابن عبدالملك هذا حاول ان ينحو هذا النحو في التمحيص والاستجلاء ، وقد اطلقها الشيخ ابو المحامد الفاسي الفهري زفرة في كتابه (مرآة المحاسن) [1] حين اعلن ان المغاربة وصفوا قديما بالاهمال قاصداً بذلك اهمالهم لرجالهم الاعلام .

واذا جعلنا نصب العين ازاء هذا ان الكثير من الآثار المغربية وحتى الاندلسية قد عفى عليها الزمن وترادف احداث العدوتين ، استطعنا ان نتصور فداحة الفراغ الذي يعترض الباحثين اليوم اذا ما حاولوا الكشف عن هذه الحلقة المفقودة من ادبنا المغربي ، سواء منها ما يتعلق بالفترة التي يشير اليها شيخ بغداد القالي او الى الفترات التاليه بوجه عام ، ويكفي ان اشير على سبيل المثال فقط الى انرسالة ابي الوليد الشقندي التي وضعت اساساً كمعارضة [2] لرسالة وضعها اديب مغربي يعرف بابن المعلم الطنجي وانبرى فيها الى تعداد مفاخر رجال بر العدوة ـ حسبما يقول صاحب نفح الطيب ـ قد ساعدها الحظ فاحتفظ بها الزمان بينما عفى على الرسالة المغربية فلا يوجد لها نص في كتاب ، بل لا نعثر حتى على هوية هذا الاديب الطنجي الذي يعتبر من الادباء المغاربة المجاهيل الى حد اليوم .

ومن الانصاف ان نتبين وجه العذر في متابعة الباحثين المحدثين [3] لكتاب التراجم الاندلسيين الذين شاءوا ان يستبدوا بكل عالم واديب ، واسجل في هذا الصدد ان

---

(١) من المطبوعات النادرة للمطبعة الحجرية بمدينة فاس .

(٢) انظر قصة تأليف الرسالتين (الاندلسية والمغربية) في نفح الطيب ج٤ ص ١٧٦ وما بعدها .

(٣) الاستقصاء في مثل هذا مما تنوء به هوامش بحث محدود كهذا ، واكتفي بالاشارة الى ماسجله الاستاذ احمد بن جد وفي التحقيق الذي كتبه عن رحلة العبدري التي نشرها بالجزائر سنة ١٩٦٥ كما اشير الى ما سجله للمستشرق كراتشكوفسكي في تاريخ الادب الجغرافي العربي عن اندلسية الجوالة اليهودي ابراهيم ابن يعقوب المعروف بالطرطوشي . مع ان اندلسيته غير محققة ، وقد تابعه بالنقل عنه في هذه الاندلسية الدكتور عبد العزيز الدوري في بحثه : (الجغرافيون العرب وروسيا المجلد ١٣ من مجلة المجمع العلمي العراقي) وابراهيم بن يعقوب هذا قد عاصر المؤرخ الاندلسي الرازي وهو الذي كتب رسالة للحكم المستنصر عن رحلة قام بها الى المانيا وبلاد الصقالبة وشمال اوربا ، وينقل البكري عن هذه الرسالة في =

الابحاث التي صدرت مؤخراً عن ابي عبدالله محمد العبدري صاحب الرحلة[1] ومنها البحث المهم الذي نشره الاستاذ محمد الفاسي مدير جامعة محمد الخامس في صحيفة[2] معهد الدراسات الاسلامية في مدريد ، ثم الترجمة التي عقدها له الاستاذ حسين مؤنس في كتابه عن الجغرافية والجغرافيين في الاندلس[3] قد كان من شأنها ان تلقي الضوء على الاوهام الناشئة عن متابعة كتاب التراجم الاندلسيين ، فالاستاذ حسين مؤنس بعد ما اشار الى جملة الابحاث الصادرة عن الرحالة المغربي العبدري انتهى الى وجه الصواب ومقتضيات التحقيق فقال : (وسواء أكان الرجل اندلسياً بلنسي الاصل ثم نشأ في المغرب او كان عربياً مغربياً لا صلة له بالاندلس فانه يعد في المغاربة ، ولا مكان له والحالة هذه في بحثنا هذا ، وانما نذكره في هذا الموضع لعرض الخلاف في نسبه واصله ، ولانه منظوم في سلك الاندلسيين عند « بونس ويجس » ، « وشيربونو » ، « وبروكلمان » ، « وجنذالث بلنسيه » ، «وكراتشكوفسكي »، ومن الحق ان يصحح هذا الخطأ ويوضع الرجل في اطاره الصحيح)

على ان الاستاذ حسين مؤنس عاد فذيل حكمه هذا قائلاً : (وان كان تاريخ الثقافة العربية في الغرب الاسلامي كله لم يعرف التفرقة الحاسمة بين اندلسي ومغربي) .

والواقع ان ما قصصته سابقاً وما استعرضته من ظواهر التفرقة التي دفعت بابن عبد الملك المراكشي الى وضع كتابه ذيلاً على كتابي ابن الفرضي وابن بشكوال وغيرهما من المصادر الاندلسية يتيح للملاحظ القول بأن في كلام الاستاذ حسين مؤنس اضطراباً .

وعلى كل حال ، فالواقع والمؤكد ان نزعة التعصب الاندلسية كانت من جملة الاسباب

= المسالك والممالك حسبما يلاحظ من مخطوط الرباط ، كما ينقل عنه في حديثه عن الصقالبة والروس ، وذلك ما يلاحظ من قطعه المسالك والممالك التي نشرها فون روزن وكونك عن مخطوطة مكتبة نور عثمانية ، وراجع ما كتبه الدكتور حسين مؤنس في كتابه الجغرافية والجغرافيون العرب حول ابراهيم بن يعقوب الطرطوشي هذا .

(١) بدأها عام ٦٨٨ هـ - ١٢٨٩ م

(٢) انظر الاعداد ٩ - ١٠ سنة ٦١ / ١٩٦٢

(٣) مستل من سلسلة ابحاثه بمجلة الدراسات العليا في مدريد .

التي عملت عملها في تصوير بر العدوة وكأنه صحراء قاحلة ، بينما اسجل من جهة ثانية ان هذه النزعة الاندلسية نفسها كما ضخمت سواد الاندلسيين الاعلام حتى لقد اصبح العنصر المغربي يبدو في ذلك السواد المنتشر وكأنه الشعيرات البيض في لمة اليافع الشاب ، فكذلك أمدت هذه الظاهرة الادب والتاريخ الاندلسيين بنبض من حياة ، وقدمت لنا نصوصاً ممتعة ترتعش في طياتها العواطف والنزعات ، فنتلوها وكأنها ما زالت في طراوتها يوم لفظتها الشفاه ، أو صرت بها على الطروس الاقلام ، حسبما سمعنا عن ابن حزم وعن أبي الوليد الشقندي منذ لحظات .

والى هنا ينشأ في نفس الباحث تساؤل عن هذه النزعة الاندلسية التي دفعت بابن بسام صاحب الذخيرة الى تسجيل كلمة أبي علي القالي فيقال : الا يمكن ان تكون الكلمة موضوعة وما جرى بها للقالي لسان ؟.

ان الاخلاص للبحث لا يجيز لنا ان نجرح ابن بسام بالوضع والتقول على الناس لا سيما وهو عدل مذكور في الثقاة ، ولكن الباحث يستطيع ان يلاحظ ـ مع هذا الاحتراس ـ ان ابن بسام قد انفرد بتدوين هذه الكلمة ، كما انه لا يرويها مسندة الى أحد ، ولا هو يغرفها من كتاب ، ونجعل نصب العين ازاء هذا انه ذيل كلمة ابي علي القالي بالمقصود المراد الذي توحي به العصبية الاندلسية فقال : (وبلغني ان أبا علي كان يصل كلامه هذا بالتعجب من اهل هذا الافق الاندلسي في ذكائهم) .

ونحن بعد ، امام كلام مبلغ عن طريق اللسان لا عن مسجلات الاقلام ، ثم بملاحظة ان ما بين تاريخ وفادة ابي علي القالي على الاندلس وبين وفاة ابن بسام قرنان كاملان من الزمان لن يكون الباحث مبعداً اذا قال ان الكلمة ربما حرفت بتناقلها على الألسنة مع تطاول الايام ، وانحرف مبناها فتغير معناها ، فأصبحت على لسان صاحب الذخيرة وقد أريد بها ما لم يرده عالم بغداد ، ولم لا يكون الامر كذلك أو قريباً اليه ، أو على نحو منه ، وامامنا الآن شاهد من نفس المقام ، وذلك ان نص كلمة القالي قد دهمته مطبعة العصر فحرفت

احدى كلماته في مطبوع ذخيرة ابن بسام ، وعقبى لذلك اصبحت كلمة (الغباوة) تقوم مقام كلمة (العبارة) واذا النص فيها يعترضنا على هذا الوجه من الاقذاع : (لما وصلت القيروان وانا اعتبر من أمر به من اهل الامصار فأجدهم درجات في الغباوة) (محرف عن العبارة) .

وعد عن هذا ، فان فى الامكان القول بأنه ليس من البعيد ان يكون للقالي غرض مبيت وراء ما قال ، فقد يكون وراء هذا حادث جرى له مع بعض البربر ـ مثل الذي وقع لابن خلدون مع بعض الاعراب الذين يطلق عليهم في مقدمته العرب ـ والبربر في تلك الامصار اكثرية سكان تلك الاوطان المغربية التي مرّ بها في طريقـــه الى الجزيرة الاندلسية ، فلم يتوان عن ثأره ، فغمز هؤلاء السكان بعجمة العبارة ، وقلة الافهام ، وهى اقصى ســـبة ينفس بها عن جرحه استاذ لغة وشيخ آداب ، فلنحاول ان نبحث في مكامن قصة وفادته على الاندلس ، فلربما وقعنا فيها على سر ما غاب عن الحساب وند عن الحسبان .

ان قصة وفادة القالي على الجزيرة الاندلسية مروية فى غير ما كتاب ، فلنتناول ما يعنينا فيها من هنا وهناك ، متجنبين مواقع الحشو وفصول الاسهاب ، فأسوق الحكاية التالية المروية عن ابن سعيد [1] في معرض كلامه عن القاضي منذر بن سعيد ، وذلك حين قال : (واول سببه في التعلق بعبد الرحمن الناصر لما احتفل لدخول رسول ملك الروم[2] صاحب قسطنطينية بقصر قرطبة الاحتفال الذي اشتهر ذكره ، اجب ان يقوم الخطباء والشعراء بين يديـه ، تذكر جلالة مقعده ، وتصف ما تهيأ له من توطيـد الخلافة ورمي ملوك الامم

---

(١) بواسطة نفح الطيب ج ١ ص ٣٤٨ .

(٢) انظر ما يتعلق بهـــذه الوفادة وغيرها في ابن خلدون وقد اختصر كلامه صاحب النفح في ج ١ ابتداء من ص ٣٤١ ثم نقل عن ابن حيان تفصيل ما اجمله ابن خلدون ، ويتعلق الأمر بالسفارة الأولى التي تمت عام ٣٣٦ والثانية في صيف عام ٣٣٨ وفي استقبال هذه السفارة الثانية وقعت قصة خطبة القالي التي كملها منذر بن سعيد ، والسفارتان معاً تمتا في عهد قسطنطين السابع لا في عهد رومانيوس الأول ولا الثاني ، حسبما يعلم من ضبط التواريخ ، فما جاء في (عيون الأنباء) لابن ابى اصيبعة في ترجمة ابن جلجل يعتبر وهماً لاغبار عليه .

بسهام بأسه ونجدته ، وتقدم الى الأمير الحكم ابنه وولي عهده باعداد من يقوم لذلك من الخطباء ويقدمه امام انشاد الشعراء ، فتقدم الحكم الى أبي علي البغدادي [1] ضيف الخلافة واامير الكلام ، وبحر اللغة ، ان يقوم ، فقام وحمد الله واثنى عليه ، وصلى على نبيه محمد (ص) ثم انقطع وبهت ، فما وصل الا قطع ، ووقف ساكتاً مفكراً ، فلما رأى ذلك منذر ابن سعيد قام قائماً بدرجة من مرقاة أبي علي ووصل افتتاحه بكلام عجيب ، بهر العقول جزالة ، وملأ الاسماع جلالة) .

وقد اضفى الفتح ابن خاقان على هذه اللحظات الحرجة صبغة رهيبة بزخرفته المعهودة وتهاويل فواصله واسجاعه ، فقال : (ان أبا علي انقطع وبهت ، فما وصل الا قطع ، ووقف ساكتاً مفكراً ، وتشوف لا ناسياً ولا متذكراً ، فلما رأى ذلك منذر بن سعيد ، وكان ممن حضره في زمرة الفقهاء قام من ذاته بدرجة من مرقاته ، فوصل افتتاح أبي علي لأول خطبته بكلام عجيب ، ونادى من الاحسان في ذلك المقام كل مجيب ، فقال يسحه سحاً ، كأنما كان يحفظه قبل ذلك بمدة) .

ويتابع ابن سعيد فيقول ، ولما فرغ منذر من خطبته أنشد :

هذا المقال الذي ما عابه فند ... لكن قائله أزرى به البلد

لوكنت فيهم غريباً كنت مطرفاً ... لكنني منهم فاغتالني النكد

لولا الخلافة أبقى الله حرمتها ... ما كنت أبقى بأرض ما بها أحد

ويقول صاحب النفح معلقاً على هذه الأبيات : كأنه عرض بأبي علي القالي وتقديمهم اياه في هذا المقام .

---

(١) المنقول عن المؤرخ الأندلسي ابن حيان بواسطة نفح الطيب ان الحكم امر أولا الفقيه محمد بن عبد البر الكتكيثاني (نسبة الى احدى قرى قنبانية) وانه بهت فجاء القالي بعده وانقطع وبهت أيضاً ولكن الذي في ابن خلدون وفي (المطمح) يوافق المنقول عن ابن سعيد من ان القالي هو المأمور بالكلام اولا .

تلك هى القصة ، وهى تعرض علينا أبا علي في هزيمة جرحته في كبرياء بداهته ، وفي شمم لغته وعبارته ، فرجت نفسه ـ كما نتخيل ـ رجاً ، لاسيما وهو قريب عهد بهزيمته الاولى على يد ابن رفاعة الألبيري التي نالت ـ كما نذكر ـ من ذوقه وحاسته الفنية ، فلا ريب ان ترادف الفاجعتين ، ولم يكن بينهما غير ثلاثة اعوام ، كان له أثره في نفس الشيخ ، ولو ان هذه الهزيمة الثانية تمت على يد مطلق اديب كابن رفاعة المعروف بشراسته وزعارة خلقه لهان الأمر ، وقيل فيها ما قد يقال في الأولى : ان الشيخ كان ضحية حماقة وسخافات ، ولكن أبا علي بحر الكلام قد نضب معينه اليوم في حفل من وجوه اهل العلم والأدب الحافين بالخليفة ، وتجاه شخصية تدرّع بمقومات في الفضل والعلم كاملة ، فقد كان منذر ابن سعيد [1] خطيب مسجد الزهراء الذي لايجارى ، وهو بعد قاضي القضاة ، المعروف بطهارة الذمة ، وحسن الاحدوثة بين الناس ، والفقيه المتمكن الذي مهد للامام ابن حزم بعده طريق الظاهرية ، والمتكلم النظار الذي أبان بنزعته الاعتزالية عن مرونة وحرية فكرية ، وهو الى هذا كله زعيم مدرسة لها اتباع وانصار ، فقد كان من متعهدي تلك البذرة التي نثرها قبله شيخه ابن مسرة ، وهى تلك الفلسفة التي تطابق افكار : فيلون الاسكندري ، وافلوطين في التاسوعات ، وبروقلس ، وفورجوريوس الصوري ، حسبما يستنتج من الشذرات المنتثرة عن آراء ابن مسرة في كتب ابن حزم ، والشهرزوري ، والشهرستاني ، والقفطي ، وابن أبي اصيبعة .

وغني عن البيان انه كان اديباً شاعراً [2] ايضاً كما سمعنا واكثر فقهاء الاندلس النبهاء

---

(١) القاضي منذر ابن سعيد البلوطي (٢٧٣ ـ ٣٥٥) راجع ترجمته في النفح تحقيق الأستاذ محيي الدين ج ١ ص ٣٤١ ـ ٣٤٥ ـ ٣٤٨ ـ ٣٥٢ والجزء ٢ ص ١٠٨ ـ ٩ ـ ١٠ ـ ٢٢٣ وراجع (المطمح وقلائد العقيان) للفتح ابن خاقان و (تاريخ قضاة قرطبة) ، وراجع (المرقبة العليا) للقاضي النباهي و (جذوة المقتبس) للحميدي ، وراجع (الروض المعطار) في مادة بلوطة ، وانظر المصادر المشار اليها في صلب هذا البحث .

(٢) انظر ما يتعلق بشعره في المصادر المشار اليها في الهامش قبله وراجع بالخصوص نفح الطيب ج ١ ص ٣٥١ والجزء ٢ ص ٢٢٧ — ٢٢٩ .

قد رويت عنهم نتف ومقطوعات ، ومرد ذلك الى ان مذهبهم في التعليم قد قام ـ كما قال ابن خلدون في المقدمة ـ على مدارسة العربية وتلقين الشعر والترسل لصغار الولدان ، ولهذا فقد كان قاضي قرطبة ممتازاً حتى في شاعريته ، ونستشف ذلك من قطعه الباقية التي يرويها المقري في النفح ، وتنقل ايضاً عن أبي عامر بن شهيد في (حانوت عطار) .

وبهذا انتهي الى القول باننا ازاء مقومات ثقافية تضفي صبغة خاصة على هذا الامتحان، وتبين عن وجه الفخر في الأبيات التي أنشدها منذر بن سعيد بعد نهاية الخطاب .

والملاحظ ازاء هذا ، اننا لم نعثر عند رواة الحكاية على أي أثر [1] لبادرة ندت في ذلك الحفل عن القالي في حق القاضي منذر بن سعيد منفساً بها عن ذلك التعريض الأليم ، فهل نستطيع ان ندعي ان القالي قد وقع بعد دهشة المقام ، وبعد شهور وايام على منفذ للغض من ذلك الشامخ والنيل منه ، فاذا هو يتنقص البربر في عباراتهم وافهامهم مستهدفاً ـ التذكير ولو من بعيد ـ بأصل القاضي منذر بن سعيد ، وهو البربري الذي لن يخفى اصله الأصيل في ذلك المحيط ، وما كانت هذه إلا سبة عند عرب الأندلس الذين نعلم عنايتهم الخاصة بالأنساب واعتدادهم بها ايما اعتداد ، حتى لقد بلغ بهم الحال ان اقاموا حتى فيما بينهم الفروق والطبقات ، فكيف ازاء البربر ، وبين الفريقين قد قامت منذ الفتح الاسلامي احن وترات [2] .

---

(١) ورد في ج ٤ ص ٤٥ من نفح الطيب عند تعرضه لتكريم المستنصر لأبي علي القالي ، وبعد ذكره لقطعة من لامية الرمادي ما نصه : (وقد تقدمت ابيات القالي التي اجاب بها منذر بن سعيد في الباب قبل هذا فلتراجع هناك) وقد يسبق لذهن قاريء النفح ان ابيات القالي المحال عليها في الباب الخامس قد كانت جواباً عن ابيات منذر بن سعيد التي ختم بها خطبته ، لكن الواقع ان صاحب النفح انما يعني الاحالة على ابيات للقالي اجاب بها منذر بن سعيد في غرض استعارة كتاب (الغريب المصنف) (انظر نفح الطيب ج ٢ ص ٢٢٧ ، وراجع الهامش رقم (١) في الصفحة (٤) من هذا البحث) .

(٢) العصبية بين البربر وعرب الاندلس معروفة من سير الحوادث التاريخية ، واحيل القاريء على مظاهر منها في المصادر التالية : انظر وفيات الأعيان لابن خلكان تحقيق الاستاذ محيي الدين عبد الحميد ج ٤ ص ٤٠٧ ، وراجع قصة (وضرب لنا مثلا ونسي خلقه) في وفيات الاعيان ج ٦ ص ١٣٦ ، وتجعل =

واذكر هنا بقصة نكبة الفيلسوف ابن رشد يوم ركب من الزرافة مركبها الوعر ، فقال عند ذكرها في شرحه كتاب الحيوان لارسطاطاليس : وقد رأيتها (يعني الزرافة) عند ملك البربر ، وكانت منه ـ فيما قالوا ـ غفلة فان أبا يعقوب يوسف بن عبد المؤمن قد اشتم رائحة ما في هذه الاضافة (لنسبة الملك للبربر) فأسرها في نفسه ، وانطلق مع الايام ينسج للفيلسوف الاحبولة التي رضت منه الجناح[1] .

أفلا يبيح هذا محاولة القول بأن ما قاله أبو علي القالي في عبارات وافهام أهل هذه الأمصار ـ واليهم يمت القاضي بالنسب ـ انما كانت في حقيقتها واصلها الاصيل من وحي الوعي الباطن الذي دلّ الشيخ الاديب على مكمن الغمز ، وسلاح الانتقام في نفس ميدان العبارات والبيان .

ومع كل هذا ، فأنا لا أهدف أن أصل الى القول بأن عبارات قومنا في تلك الاعصار قد كانت نفثات سحرية أو لفتات بيان ، أو أن حركتنا الادبية كانت في ذلك الدور مستوية على ساق ، بل انني اسجل ان الباحث لايستبين من خلال هذا الدور من أدوار حياة لغة العرب في بلادنا غير بوادر ضئيلة لنشأة الآداب ، والباحث يستروحها مما يتحدث به المؤرخون عن مجلس آخر الأمراء الادارسة بفاس[2] الذي قالوا عنه انه كان مجلس شعراء وعلماء ، ومن حديثهم ايضاً عن شاعر نعت الشريف الحسن بن محمد بن القاسم بن الحجام حيث قال يخاطبه .

وسميت حجاماً ولست بحاجم ولكن لضرب في مكان المحاجم

وهي أخبار تثير على أي حال التساؤل عن وفرة هؤلاء الشعراء أو قلتهم ، وحتى عما

= نصب العين هنا دواعي تأليف كتاب (مفاخر البربر) مطبوع الرباط وكتاب (انساب البربر) الذي نسبه البيدق (خادم ابن تومرت) الى المؤرخ التونسي محمد بن يوسف الوراق ، والاحظ ان عزو الكتاب الى الوراق قد يقوم شبهة لترجيح نسبه البربري .

(١) انظر (عيون الانباء) لابن ابي اصيبعة .

(٢) انظر مجموعة المطبوعات الحجرية بفاس التي تنتشر فيها اخبار الادارسة ونصوص من آثارهم .

اذا كانوا جميعاً من ابناء المغرب أو انما هم طارئون منتجعون أبواب أمرائه ، ولذا فان الباحث لا يظفر في المصادر التاريخية بما فيها المخطوطات المغربية بأكثر من اسماء معدودة لشعراء اختفت اخبارهم ، وتوارت آثارهم ، فلم يعد هناك الى حد اليوم اي مطمع لاستجلاء صورة ما عن حياتهم ، أو الوقوع على اكثر من نتفة لهذا ، أو مقطوعة لذاك من انتاجهم ، وفي طليعة هؤلاء شرفاء من آل المولى ادريس نضر الله وجوههم ، ولولا ما توافر لهم من مقومات ـ غير عنصر الادب ـ لطغى على سيرهم الغموض كما طغى على سواهم من الشعراء .

وهكذا ، وبعد التتبع والاستقراء ، فلن يعثر الباحث على اكثر من هذه الاسماء : المولى ادريس الازهر ـ ابنه القاسم ـ ابن السمهري ـ ابراهيم النكورى ـ الاصيلي ـ المكفوف الطنجي ـ سعيد المصمودي ـ محمد البجيلي ـ ابراهيم بن ادريس ـ عبيدالله ابن يحيى بن ادريس [1]

واغلب هؤلاء ـ كما يلاحظ ـ منسوب الى الحواضر التي كانت مجتمعاً للعناصر العربية او قواعد لحكوماتها يومئذ وهي (نكور ، طنجة ، وفاس) والى هذه الحواضر الشمالية التي كانت بموقعها الجغرافي ومجتمعها قطعاً اندلسية او تكاد ، يعزى معظم رجال الفكر المغاربة في الاجيال الاربعة الاولى بعد فتح الاسلام ، واذكر الى جانب هذه الحواضر قاعدة اخرى كانت مهاد جل علماء وادباء هذا الدور والذي تلاه وهي مدينة (سبتة) التي اصبحت منطقة نفوذ عربي اندلسي منذ اوائل القرن الرابع وكانت بحكم موقعها مجازاً عربياً في الغدو والرواح بين العدوتين .

وذلك ما يسلم الى القول بان المراكز العربية في هذه المرحلة من تاريخ المغرب هي نفسها مراكز الحياة العقلية بطبيعة الحال ، وذلك ايضاً ما يجلي بوضوح ان لظاهرة تأخر

---

(١) الذي اعلم ان الشخصيتين الاخيرتين لم تذكر قبل هذا البحث من بين الاسماء التي سجلتها الابحاث المغربية الحديثة ، كأسماء لمن رويت لهم نتف ومقطوعات في هذا الدور .

ركبنا الادبي في تلك الاحقاب سبباً ماثلاً في غير النقص في الافهـــام او نضوب القرائح والاذواق ، وانما هي ظروف خاصة وملابسات طارئة لم تتح للهجرة العربية ان تشق طريقها او تأخذ في ارضنا قرارها ، كما تم ذلك في الجزيرة الاندلسية نفسها او في بعض البقـــاع الاخرى ومنها مصر التي ساركز على بعض اخبارها على سبيل المثال ، واعني ان العرب لم ينتشروا بامصارنا ولا اختلطوا وامتزجوا بقومنا وهم في اقطار العرب المفتوحة عماد نشأة الاداب ، وسناد حركة التعريب والاستعراب .

ففي مصر مثلاً نجد لعنصرنا العربي صلة قديمة ببلاد الاقباط ، فقد كانت أيلة وهي المعروفة اليوم بالعقبة ممرهم في رحـلات الصيف والشتاء ، وهنـاك وفادات مذكورة تثبت اتصالا وتزاوراً ، كوفادة عمرو بن العاص ، ورسالة حاطب بن ابي بلتعة الى المقوقس بقصد الدعوة الى الاسلام ، وكوفادة الرحالة المصري قزمان على الجزيرة العربية قبل الاسلام ، هذا الى ما روى من آثار ترغب العرب المسلمـين في هبوط مصر او (الشجرة المباركة) حيث يجدون على ضفاف النيل ما يسألون من خيرات ، فهناك امر مأثور عن الخليفة سيدنا عمر ابن الخطاب يحض فيه عامل الشام ان يسير الى مصر ثلث من بالشام من قضاعة ، كما انه كان يبعث كل عام غازية من اهل المدينة للمرابطة بالاسكندرية ، وكأنما اصبح عمل الفاروق رضي الله عنه تقليداً مرعياً في السياسة العربية تجاه هذه البلاد المصرية ، فنشاهـــد منذ الفتح الاسلامي سيلاً لا ينقطع عنها من المهاجرين افراداً وجماعات ، فـكل خليفة يسير اليها إمدادات اثر إمدادات ، وكل وال يسوق اليها آلافا مؤلفـة يعضدونه ويشدون أزره في الملمات ، وبالرجوع الى ما كتبه الـكندي في كتاب (القضاة والولاة) وابن عبدالحـكم في (فتوح مصر) والمقريزى في الجزء الاول من (الخطط) ، والى ما كتبه القلقشندي في الجزء الثالث من صبـح الاعشى) نلحظ عناية خاصة بتاريخ هجرة القبائل العربية الى مصر وتعـــداد بطونها وتحديد منازلها ، ولو وضعنا نصب اعيننا مصوراً وفق تلك التفاصيل والتدقيقات الضاربة شرقاً وغرباً ، وجنوباً وشمالا ، لرأينا العرب منتشرين في الامصار وفي

الارياف ، ومعمرين الاخاذات بالاسكندرية ، ومنتشرين في الاقطاعات، ومتوافدين زرافات ووحـــداناً على الربط ، وما اكثر الربط في مصر ، ومنها نفر العرب لغزو بلاد الروم والمغارب الثلاث ، والنوبة ، والحبشة والسودان .

ان هذه الحركة لتؤذن بان تعريب تلك الارض كان تدبيراً مبيتاً مقضياً به ، سواء عند الراشدين او عند خلفاء دمشق وبغـداد ، ويروي صاحب (النجوم الزاهرة) من خطبة للفاتح عمرو بن العاص يحض فيها العرب على الانسياح في الارياف حين قال : (فحي لـكم على بركة الله الى ريفـكم فنالوا من خيره ولبنه ، وخرافه وصيده ، واربعوا خيلـكم واسمنوها، وصونوها واكرموها فانها جنتـكم من عدوكم ، وبها مغانمـكم وانفالـكم) ، ثم يتابع الفاتح حضه قائلا : (فتمتعوا في ريفـكم ما طاب لـكم ، فاذا يبس العود ، وسخن العمود ، وكثر الذباب ، وحمض اللبن ، وانقطع الورد من الشجر ، فحي الى فسطاطـكم على بركة الله) .

وهذه التوجيهات ـ الى جانب عمل الفاروق الذي عد توجيهاً عند من جاء بعده ـ فيما يظهر ـ تشير كلها الى ما عقدت عليه النية تجاه تلك البلاد ، وحري بسياسة يختطها الفاروق ويرعاها ابن العاص ان تصبح في نظر ولاة الامر بعدها هـدياً في السياسة لا يحيد عنه الا جانح عن طريق الصواب .

ولقد تحققت ارادة الرجلين ، وقضى رويداً رويداً على الثورات القبطية التي كان من المنتظر ان تشب في بعض الارجاء ، حتى اذا كانت سنة سبع عشرة ومائتين وهي السنة التي اوقع فيها المأمون بالقبط ، امكن لبني يعرب ان ينساحوا انسياحا ، ويمتزجـوا امتزاجاً بالسكان من الابيض المتوسط الى اسوان ، وقد تـكون بذلك مجتمع اسلامي عربي بلغته وثقافته وعوائده ، وما كاد يطـل القرن الرابع الهجري حتى رأينا « ساويرس بن المقفع » يؤلف كتابه عن تاريخ حياة البطاركة ، واذا هو يقول في مقدمته التي كتبها بنفسه انه كان يلجأ الى القبط ليترجموا له الوثائق اليونانية والقبطية الى اللغة العربية ، وهي وثيقة ناطقة

بان اللغتين اليونانية والقبطية قد القيتا السلاح امام استعلاء لغة الضاد ، وبان حركة التعريب والاستعراب بلغت او قاربت حد الكمال .

ولقد ساعد هذا الجو العربي الذي عرفته مصر منذ الفتح الاسلامي على نشوء حركة نحوية ولغوية في القرن الثاني ثم سرعان ما وطأت لبوادر نهضة ادبية في القرن الثالث ، وبفضل هذا ، وبعد ان دخلت مصر في العهد الطولوني وساد ارجاءها هدوء نسبي تهيأ لها ان تنتج ادبها العربي المصري بشعره ونثره ، واصبحت بمنجاة من تشهير ابي علي القالي الذي مر بها في طريقه الى الجزيرة الاندلسية واتصل بشيوخ ادبها .

ولا احتاج (كما اشرت قبل) ان افصل القول بالنسبة الى الانسياح العربي في الجزيرة الاندلسية ، فذلك معروف ومتداول ، وله دواع وملابسات ساعدت عليه ، ويكفي ان احيل على كتاب (جمهرة انساب العرب) لابن حزم فان المتتبع لصفحات الكتاب ليستطيع ان يتبين بوضوح حركة نزول القبائل العربية وانسياحها في ارجاء الجزيرة وكأن بين يديه خارطة تفصيلية .

أما في المغرب الاقصى او بر العدوة كما في اصطلاح اهل الاندلس فقد كانت الحال غير الحال لا بالنسبة لنشاط الهجرة العربية ولا بالنسبة للاستقرار ، او لطبيعة الثورات التي نراها عند الاقباط انتفاضات ، وعند البربر انتفاضات ، فلقد كان العرب في اثناء دور الفتوح بالمغرب أقلية صغيرة وكانت مراكز نشاطهم في هذا الدور محدودة وغير قارة ، حتى اذا وافى الطور السياسي الثاني بقيام دولة الادارسة نراهم ايضاً اقلية صغيرة لما سبق من حوادث داخلية كانت سبب اعراض العرب عن الهجرة ، ثم لمّا استجد في عدوة الغرب (الاندلس) من استقرار دولة اموية اندلسية أُغرِي العرب بها ، وخف ذوو المواهب منهم الى انتجاع امرائها ، ثم جاء الدور الثالث بصراع (مغراوة) وبني (يفرن) وبانطواء البساط الادريسي العربي ، وانتشار سلك من ناصره من عرب الاندلس والقيروان وذلك ان عقبة بن نافع الذي قام باول حملة على التراب المغربي انما اخترق بسائط البلاد ، ثم

ارتجل فتح الاطلس وصحراء (لمتونة) ارتجالاً ، وما كان في الامكان اكثر من هذا في حساب من مارس حروب البربر ، وانفسحت امامه وخلفه رقعة شاسعة يعسر ضبطها بشراذمه القليلة من العرب ، ولهذا تعذر بسط النفوذ العربي على هذه الارض في اول الامر ، فتتابعت حوادث الانتقاض سراعاً ، وتعطل النشاط العربي حقبة من الزمن ، الى ان سمحت حوادث الشرق الداخلية بمعاودة الكرة على هذا التراب .

ومن ملاحظة هذه الظواهر في حركة الجيش الاسلامي في الشمال الافريقي يرى بعض الباحثين من عرب واجانب ان شمال افريقيا لم يكن غرض فتح في بادىء الامر وانما اتخذه العرب فيما يظهر منفذاً وطريقاً لغزو القسطنطينية من الغرب بعد ان اخفقت محاولات الاجهاز عليها من الشرق ، ولذلك ولّوا وجههم شطر اسبانيا القوطية ولم تعاودهم فكرة الانسياح في تراب المغرب وتوطيد اقدامهم في قواعده الا بعد ظهور بوادر الاخفاق في موقعة بلاط الشهداء .

وعلى كل حال ، فان الباحث المستقري لا يسعه الا ان يستثني من ظاهرة انكماش النشاط العربي واقع الحال في رقعة صغيرة بشمال المغرب اسلم بربرها من (صنهاجة) و (غمارة) على يد فاتحها صالح بن منصور الحميري عام تسع وستين ، فقد ظلت هذه الرقعة تحت لون من النفوذ العربي لاصهار هذا الفاتح الى البربر وقيام ذريته منهم بالرياسة بينهم ، واشهرهم حفيده سعيد بن ادريس مؤسس مدينة (نكور) التي غدت رباط هذه الدويلة الصغيرة حسبما يحدثنا بذلك البكري والاصطخري وابن عذارى في (البيان المغرب) وابن خلدون في التاريخ .

وهكذا ، فان قلة العناصر العربية من جهة ، وبعد الشقة بين المغرب وبين مركز الخلافة من جهة ثانية كانا من الاسباب الرئيسة في بطء انتشار اللغة العربية ، حيث لم يتحقق اختلاط وامتزاج بين العنصريين ، ولم يتأت القيام بمشاريع كبرى لنشر اللغة وتعميمها ، ويكفي لنتصور ضآلة العنصر العربي في هذا الدور ان نعلم ان الولاة العرب الذين تعاقبوا

من لدن خلفاء الشرق من الامويين ثم العباسيين لم يكن لديهم من العرب العـــدد الوافي بالمهمات والكافي من المساعدين ، وانما كانوا يعتمدون على زعماء البربر ممن قرب عهـدهم بالاسلام .

وأهم ما عرف في اثناء هذا الدور من مساعيهم لتعريب البربر صدور امر موسى ابن نصير الى العرب الذين نزلوا طنجة مع طـارق بن زياد بتعليم البربر الفقه والقرآن ثم تلا ذلك ارسال بعثة من الفقهاء والقراء على رأس المائة الاولى لتحقيق هـذه الغاية بالذات ، وقد كانت هذه المساعي ـ كما يبدو ـ جزءاً من تدبير شامل عام لما يروى من ان عبدالملك ابن مروان قد كان امر بتعميم لغة الضاد في جميع دواوين ممالك الاسلام ، ثم بعده صدر امر آخر بالغاء اللغات الاجنبية الشائعة .

ولقد كانت مثل هذه البذور خليقـة ان تؤتي اكلها لمدة مناسبة ـ كما وقع في مصر مثلاً ـ لو القي بها في تربة هـادئة مطمئنة ، ولـكن سرعان ما هبت على الشمال الافريقي اعاصير بدعة الخارجية التي تسربت اليه في مطلع القرن الثاني ، ولقد وجدت هذه النحلة الدخيلة مرعاها الخصيب في غرب المملـكة الاسلامية بعد ان ضاق عليها الخناق في شرقها ، وذلك انها صادفت هوى في نفوس البربر بما تنطوى عليه مبادئها من الثورة على انحراف بعض الحـكام ، وبمـا بثه رجالهـا المتسللون الى المغرب من فـكرة العنصرية بين السكان ، فوشجت عروق نحلة الصفرية ، والاباضية ، في اكثر القبائل وتذرع بها الزعماء للاحتفاظ بسلطانهم الذي خيل اليهم انه سيضيع على يد الفاتحـــين العرب ، وما ان هبت حكومة الشرق توالي الـكتائب اثر الـكتائب الى ولاتها الذين انبروا لاستئصال جرثومة الداء حتى اشتعلت نيران فتن هوج ، امتد لهيبها من اقصى طرابلس الى طنجة عاصمة المغرب حينئذ واندلعت اول شرارة من هذه العاصمة بقتـــل الوالي العربي عمر بن عبدالله المرادي عام اثنين وعشرين ومائة ، وبانتصاب الزعيم البربري والصفري ميسره خليفة للمسلمين بالمغرب الاقصى الى حين .

وهنا ينشأ في نفس الباحث هذا التساؤل : الا يكون وجود هؤلاء الخوارج العرب بين ظهراني البربر وفي معترك حروبهم عاملاً من عوامل نشر اللغة ، وهو سؤال له حظ من النظر ، لا سيما بعد ان استقرت للخوارج دولتهم المدرارية (بتاهرت) المشار اليها ، غير ان هذا لا يفسح مجال الاعتداد بهذه الظـــاهرة كعامل له تأثيره الذي يحمل الباحث على استجلاء مظاهره وتعقب آثاره ، وذلك انه يلاحظ من جانب آخر ان اكثر الخـوارج ومتزعمتهم المعروفين باسمـــاء انما كانوا من البربر انفسهم لا من العرب ، ولو ان بعوث الخلافة كانت تقف على هذه الارض في وجـه خوارج توافر بينهم العرب كما وقع بالشرق لكان من المنتظر ان ينجلي هذا الصراع عن آثار ادبية ، ويتمخض عن انتـــاج في باب الشعر والخطابة ، ولبعد كل البعـد ان يعفى على جميعه الضياع والنسيان او يأتى حتى على السائر منه كر الليالي والايام .

وعلى كل حال فمن المؤكد ان هذا الانتقاض الذي تقوض معه نفوذ الشرق السياسي وانتـكت به حبل الهدوء والاستقرار قد قطع سبيل الهجرة على الوافدين غـــير متسللة الخوارج والمحاربة واتى على ما من شأنه ان يقوم في هـــذه البلاد اساساً لحركة ادبية او لغوية .

وتسلمنا حوادث هذا الدور الى الدور السياسي الثاني عند ما انفصل المغرب عن مملكة العباسيين الكبرى اواخر القرن الثاني بمبايعة البربر المولى ادريس بن عبد الله ، وقـد كان ذلك انتصاراً عربياً لاغبار عليه ، وقامت الدولة الجديدة وامرها بيد طائفة من رجال القبائل العربية التي وفدت من الأندلس ومن القيروان ملتفة بالمولى ادريس طيب الله ثراه ، وكانت بيوتاً من (قيس) و (مذحج) ، ومن (يحصب) و (الأزد) و (الصدف) ، ثم تعززت بالنازحين الى فاس من عرب قرطبة الذين اجلاهم الحكم عنها في وقعة الربض ، ثم اسندتها طائفة عربية اخرى وردت في دولة يحيى بن محمد بن ادريس من الشرق ومن الاندلس ومن القيروان .

وقد كانت فاس الحديثة العهد بالبناء كعبة هؤلاء القصاد جميعاً ، وكانت وفادتهم مبعث نشـــاط عربي في جميع الميادين ، ولـكنه كان نشاطاً ضئيلاً في باب الأدب ، لان اغلب الوافدين على المولى ادريس من القيروانيين والاندلسيين انما كانوا اهل زراعـة او تجارة وصناعة كما يحدثنا صاحب كتاب (القرطاس) وذلك ما دعت اليه ضرورة الانشاء والتعمير في تلك الايام ، أما رجال الفـكر منهم ـ ومن بينهم اولئك الذين اقامهم المولى ادريس فى مناصب الحـكم ـ فجلهم من رجال الشريعة ورعيل الفقهاء ، ومثلهم في هذا الاتجاه اخوانهم اهل الربض .

وهناك عوارض اخرى حالت دون قيام حركة ادبية يعتد بها في هذا المجتمع ، فمنهـا ما يلاحظ من عدم اســـتقرار الاحوال ، وذلك لما استعر من فتن داخلية عقبى لنشوب الخلاف بين ابناء المولى ادريس اثر اقتسام المملـكة بينهم ، ثم ما استجد من قيام الخوارج الصفرية على عهد علي بن عمر حفيد المولى ادريس ، ثم ما يلاحظ من قلة الوافدين على هذه المملـكة من رجال الأدب وانصرافهم عنهـا الى مملـكتين عربيتين اكتنفتا بر العـــدوة واستأثرتا بكل سانح وبارح من الطارئين من رجال الادب اولاهما بعدوة الاندلس وهى التى اســـتهوت رجال الفـكر والأدب بما أفاء الله فيها على العرب من ثراء المغـانم ، وبما استروحوه في الامارة الاموية الجديدة من روح عربية ماثلة في تقاليدها وشعرها وصلات أمرائها ، والثانية بعدوة الشرق حيث قامت دولة الأغالبة تناصر بني العباس وتـكيد لبني ادريس سراً وعلانية .

واشير الى ظاهرة لها اهميتها في هذا المقام وهى تجافي المغاربة في مختلف العصور عن مذهب جيرتهم أهل الاندلس والقيروان القائم ـ كما يقول ابن خلدون ـ على تلقين الشعر والترسل ومدارسة العربية لصغار الولدان ، وذلك ان المغاربة آثروا أخذ المتعلم في جنون صباه وأول أمره بتحصيل القرآن والقيام على اصول الفقه والحديث وعلومه ، فلا تعصف

بهم رياح الشبيبة ، وهى نزعـــة من نزعات أخذهم بالحزم ، ومظهر من مظاهر اعتزازهم بالثقافة الدينية واعتدادهم بها في كل آن .

ومع كل هذا فان مجتمع الادارسة قد فسح المجال لظهور استعدادات وملكات ادبية كانت متوفرة في بعض ابناء المولى ادريس ، كما عرف من بعض الاسماء المذكورة سابقاً ، وقد اثرت عن بعضهم مقطوعات وعرف عن آخرين منهم شغف بالأدب وتعلق بذويه ، كأبي العباس احمد الاكبر بن القاسم الذي استقدم الى بر العدوة شاعر تاهرت بكر بن حماد [1] ، وكالأمير يحي بن ادريس بن عمر بن ادريس الذي كان يشـــهد مجلسه العلماء والشـــعراء .

وعلى عهد هذا الأمير العالم الأريحي الذي انفسحت له المملكة ، ومد الله له في النصر والجاه ، وعلى حين فجأة طما على هذه المملكة عباب العبيديين من الشـــرق ، وعلى غرة شرهت اليها دولة أمية فى الشمال بعد ان استفحل ملكها على عهد الناصر عبد الرحمن ، فأنهار كرسي الأدارسة من فاس ، وتفرقوا أيدي سبأ واعتصم فلهم بالريف وجبال (غمارة) حيث ظلت لهم امارة صغيرة تابعة للعبيديين حيناً وللمروانيين حيناً ، وكان مقر هـــذه الامارة مدينتي البصرة واصيلة ، ثم (قلعة حجر النسر) ، ومن أبرز شخصياتهم في هـذا الدور الأمير الحسن بن كنون ، وبقتله على يد المنصور بن أبي عامر انطفأ آخر مصباح في دولة المولى ادريس رضى الله عنه .

ولقد اصبحت البلاد بعـــد أن اجلي عن عاصمتها أميرها يحي في مطلع القرن الرابع مسرح نفوذ عبيدي أموي دام طيلة نصف قرن اشـــبه ما يكون بمد وجزر ، فما يكاد العبيديون يفرضون سلطانهم حتى يثور عليهم شيعة الامويين ، فيتقلص نفوذهم ليقوم مقامه النفوذ الأموي ، وما يوشك ان يستقر هذا حتى ينهض لتقويضه انصار العبيديين ، وما كان ـ فيما يظهر ـ للدولتين طمع في امتلاك هذه البلاد بعد أن ايأستهم منها احوالها

(١) انظر لحن العوام للزبيدي ص٢١٤ ، وانظر جذوة المقتبس للحميدي ٣١١ .

المضطربة طوال جيل كامل ، وبعد ما جشمها هذا الصراع افدح كلفة وكبير النفقات ، وانما كانت كل منها تستهدف ان تجعل من هذه الارض ومن رجالها دريئة لاتقاء عدوان جارتها ، حتى اذا انصرف العبيديون الى سلطانهم الذي تأثل لهم في الشرق ووهن الامويون امام هذا الصراع ، نرى الامر اصبح موزعاً بين زعماء القبيلتين البربريتين : (مغراوة) انصار الامويين ، وبني (يفرن) اتباع العبيـــديين ، فعرف المغرب الاقصى في هـــذه الفترة ايامه الشداد النـكدات بظعن نفوذ العرب المباشر ، وباشتعال نار الخلف وامتداد الحيف ، وانبساط الخوف .

وهكذا ، انتهي الى القول بأن اهل هذا الوطن لم تساعدهم ظروفهم واحوالهم في اثناء الاجيال الهجرية الأولى على الاختلاط والامتزاج بالعرب ، فلم تتمكن منهم ملـكة اللغة ، ولم ينطلق لسانهم بمأثور الـكلام ، ولعل هذا ما عناه ابن سعيد في كتابه (المرقص المطرب من اشعار اهل الاندلس والمغرب) حين تـكلم على شـعراء المغرب من اول الديار المصرية الى البحر المحيط فقال : (ان الجاهلية وما بعد الى المائة الرابعة عاطلة مما هو من شرط هذا الـكتاب) .

ولا يسع الباحث ازاء ما قصصت ورويت ، الا أن يزكي هـــذا الحـكم ما دام الامر يتعلق بالمرقص المطرب من كلام اهل هذه الاوطان ، اما والامر يتعلق في كلمة أبي علي القالي التي مست العلم والافهام فقد يكون للباحث عليها مقال ، كما يعبر الفقهاء .

وعلى كل حال ، فاذا كان أبو علي القالي عالم واديب العراق قد قالها في افهام اهل المغرب ، فقد ندت عن الامام ابن حزم الاندلسي كلمة تغض ايضاً من افهام اهل العراق ، فعنـــدما تعرض الامام ابن حزم في رسالته الآنفة الذكر الى ما للأقاليم التي توجد فيها الاندلس من تأثير في الاستعدادات قال : (واما في قسم الاقاليم فان قرطبة مسقط رؤوســـنا مع (سر من رأى) في اقليم واحـد فلنا من الفهم والذكاء ما اقتضاه اقليمنا) ، وهـــذه واحدة بواحدة كما يقال .

عبد الرحمن الفاسي